بِنْيَةُ الصُّورَةِ الفَنِّيَّةِ فِي رَسَائِلِ ابْنِ نُبَاتَةَ المِصْرِيِّ

دراسة أسلوبيَّة دلاليَّة

The Structure of Artistic Imagery in the Epistles of Ibn Nubata al-Misri: A Stylistic and Semantic Study

DOI: https://doi.org/10.5281/zenodo.22315394

*Muhammad Waseem Ghafari
**Dr. Shamsuddin Damar

Abstract

This study examines the structure of the artistic image in the epistles of Ibn Nubata al-Misri (686–768 AH) as a stylistic and semantic system that produces meaning, shapes attitude, and regulates the relationship between sender and recipient. Using a stylistic-semantic approach informed by classical Arabic rhetoric and modern stylistics, it analyzes selected fraternal and literary epistles preserved in Sajʿ al-Mutawwaq and al-Safadi's Alhan al-Sawajiʿ, together with The Debate between the Sword and the Pen. The study shows that simile, metaphor, metonymy, personification, and intertextuality interact with rhythmic devices such as parallelism, rhyme, antithesis, and repetition. Ibn Nubata draws his imagery from the human body, nature, place, and religious and cultural memory, turning abstract meanings such as longing, merit, reproach, and estrangement into sensory scenes. The image consequently performs aesthetic, argumentative, psychological, and social functions and reveals the vitality of Mamluk artistic prose.

Keywords: *Ibn Nubata al-Misri; artistic image; epistles; stylistics; semantics; Mamluk prose.*

تتناول هذه الدراسة بنية الصورة الفنية في رسائل ابن نباتة المصري (768–686هـ) بوصفها نظامًا أسلوبيًّا ودلاليًّا يتجاوز حدود الزينة البلاغية إلى إنتاج المعنى، وتشكيل الموقف، وبناء العلاقة بين المرسِل والمتلقّي .واعتمدت الدراسة المنهج الأسلوبي الدلالي، مستفيدةً من أدوات البلاغة العربية ومقولات التحليل الأسلوبي الحديث، ومركّزةً على نماذج من رسائله الإخوانية وما حفظه كتاب "سجع المطوّق" و"ألحان السواجع"، إلى جانب رسائله الأدبية، ولا سيما "المفاخرة بين السيف والقلم". وتكشف القراءة أن الصورة عند ابن نباتة تقوم على تفاعل التشبيه والاستعارة والكناية والتشخيص والتناص، وأنها تستمد مادتها من الإنسان والطبيعة والمكان والتراث الديني والثقافي .كما تبين أن التوازي والسجع والطباق والتكرار لا تعمل منفصلةً عن الصورة، بل تمنحها إيقاعًا داخليًّا وتكثيفًا دلاليًّا .وتخلص الدراسة إلى أن ابن نباتة يحوّل المعاني المجرّدة -كالفضل والشوق والعتاب والاغتراب - إلى مشاهد محسوسة وحركات متتابعة، وأن صورته الفنية تؤدي وظائف حجاجية ونفسية واجتماعية، فضلًا عن وظيفتها الجمالية؛ ومن ثمّ تمثل رسائله حلقةً مهمّة في تطور النثر الفني في العصر المملوكي.

*Lecturer, Department of Arabic Language and Literature, National University of Modern Languages, Islamabad,
**Lecturer, Department of Arabic Language and Literature, University of Sargodha, Pakistan

المقدِّمة:

تُعَدُّ الرسالة الأدبية من أكثر الأجناس النثرية قدرةً على تمثيل الحياة الثقافية والاجتماعية؛ فهي وثيقة اتصال من جهة، ونصٌّ فنيٌّ تتكثف فيه طرائق الاختيار والتأليف والتصوير من جهة أخرى. وقد شهد العصر المملوكي اتساعًا ملحوظًا في الكتابة الديوانية والإخوانية، ونشأت بين الأدباء شبكات من المراسلات تتبادل التهنئة والتعزية والعتاب والاعتذار والوصف، فصار الترسل مجالًا لإظهار البراعة اللغوية واستثمار الذاكرة الأدبية.

ويحتل جمال الدين ابن نباتة المصري منزلةً بارزة في هذا السياق؛ إذ جمع بين الشعر والنثر، واتصل بأعلام عصره، ولا سيما صلاح الدين الصفدي، وحفظت المصادر جانبًا واسعًا من رسائله ومخاطباته .وقد وصفه الصفدي بلطف النظم وعذوبة اللفظ وجودة المعنى وانسجام التركيب، وهي صفات تشير إلى وحدة الحس الفني في شعره ونثره .غير أن شهرة ديوانه الشعري طغت في كثير من الدراسات على منجزه الرسائلي، فظل بناء الصورة في رسائله بحاجة إلى قراءة تجمع بين تشكيلها البلاغي ووظيفتها الدلالية.

لا تنظر الدراسة إلى الصورة بوصفها تشبيهًا أو استعارةً منفردة فحسب، بل بوصفها بنيةً تتكون من معجم مختار، وعلاقات تركيبية، وإيقاع، وتناص، ووجهة نظر .فالقيمة الفنية لا تسكن اللفظة المفردة، وإنما تنشأ من انتظام العناصر في سياق الرسالة ومن صلتها بالمقام وبالمخاطَب. ومن هنا جاء الجمع بين الأسلوبية والدلالة :الأولى للكشف عن الانحراف والاختيار والتوازي، والثانية لبيان ما تضيفه الصورة إلى المعنى المباشر من إيحاء وتقويم وحجاج.

وتتمثل مشكلة البحث في السؤال الرئيس الآتي :كيف بنى ابن نباتة صورته الفنية في رسائله، وما المصادر والوسائل التي شكّلتها، وما الوظائف الدلالية التي أدتها في مقامات التواصل المختلفة؟ ويتفرع منه البحث في أنماط الصورة، وعلاقة التصوير بالإيقاع والتناص، وأثر المقام في توجيه الدلالة .وتفترض الدراسة أن الصورة في رسائله عنصر بنائي لا حلية عارضة، وأنها تصل بين التجربة الذاتية وأعراف الترسل المملوكي.

وتعتمد الدراسة المنهج الأسلوبي الدلالي، مع الإفادة من الوصف والتحليل والموازنة الداخلية بين نماذج الرسائل .ويضم corpus البحث نماذج من الرسائل الإخوانية المنسوبة إلى "سجع المطوّق" وما نقله الصفدي في "ألحان السواجع"، ويستأنس برسالة "المفاخرة بين السيف والقلم" لأنها تكشف بوضوح آليات التشخيص والحجاج والتناص في نثر ابن نباتة.

تمهيد :ابن نباتة وفنُّ الترسُّل في العصر المملوكي

هو أبو بكر جمال الدين محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الفارقي المصري، ولد في القاهرة سنة686 هـ، ونشأ في بيت علم وأدب، ثم أقام مدةً في الشام واتصل بأمراء حماة وكتابها، وعاد في أواخر حياته إلى مصر، فتوفي سنة768 هـ .وقد أتاحت له تنقلاته بين القاهرة ودمشق وحماة والقدس خبرةً مكانية واجتماعية انعكست في شعره ورسائله، ولا سيما صور الحنين والغربة وشكوى الدهر وتقلّب الأحوال.

خلّف ابن نباتة آثارًا نثرية متعددة، منها: "سجع المطوّق"، و"مطلع الفوائد ومجمع الفرائد"، و"سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون"، و"المفاخرة بين السيف والقلم"، فضلًا عن مختارات ورسائل متفرقة .ويكتسب "سجع المطوّق" أهمية خاصة لأنه جمع رسائل إخوانية بين المؤلف وطائفة من أدباء عصره، كما حفظ الصفدي في "ألحان السواجع" مساحةً كبيرة من المراسلات المتبادلة بينهما .وتدل هذه المادة على أن الرسالة عند ابن نباتة جزء من ممارسة أدبية حية، لا تمرين مدرسي معزول.

تداخلت في الترسل المملوكي وظيفتان :وظيفة تداولية تنقل التهنئة أو الطلب أو العتاب، ووظيفة فنية تجعل الرسالة ميدانًا للتنافس .لذلك شاع السجع والتورية والتضمين والاقتباس، غير أن الحكم على هذه الظواهر ينبغي ألا يتوقف عند إحصائها؛ فالمعيار هو مقدار اندماجها في المعنى. وفي رسائل ابن نباتة يجيء المحسن غالبًا مرتبطًا بحركة الصورة :التقابل يرسم صراعًا، والسجع يثبت طرفي المشهد، والتورية تفتح مستويين من الدلالة.

المبحث الأول :مفهوم الصورة الفنية ومكوّناتها

أولًا :من الصورة البلاغية إلى البنية النصية

ربط البلاغيون العرب الصورة بطرائق البيان؛ فبحثوا التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية، وبيّن عبد القاهر الجرجاني أن مزية الكلام لا ترجع إلى الألفاظ منفردة، بل إلى النظم والعلاقات التي يقيمها السياق بينها .ويتيح هذا التصور فهم الصورة بوصفها طريقةً في ترتيب الخبرة لا مجرد استبدال لفظ بلفظ .وحين يشخص ابن نباتة القلم، أو يجعل الشوق نارًا، أو يصور الكتاب رسولًا يسافر بين الصديقين، فإن المعنى ينشأ من شبكة أفعال وصفات وعلاقات.

أما النقد الحديث فقد وسّع مفهوم الصورة ليشمل كل تشكيل لغوي يمنح الفكرة هيئةً حسية أو رمزية، ويربط عناصر متباعدة بعلاقة جديدة .وعلى هذا الأساس تتكون بنية الصورة في الرسائل من أربعة مستويات متفاعلة :مادة معجمية تستدعي مجالًا حسيًّا؛ وعلاقة بيانية تقوم على

المشابهة أو المجاورة؛ وتركيب يوزع الحركة والزمن؛ وسياق تداولي يحدد مقصد المرسل .وإذا انفصل أحد هذه المستويات عن الآخر تحولت الصورة إلى زخرف، أما إذا تآزرت أصبحت مولدةً للدلالة.

تتميز الصورة الرسائلية عن الصورة الشعرية باتصالها المباشر بمقام التخاطب .فالمخاطَب شخص معلوم، والرسالة مرتبطة بواقعة أو مناسبة، ولذلك تُقاس الصورة أيضًا بقدرتها على حفظ المودة أو تلطيف العتاب أو تعظيم الممدوح أو تسويغ الطلب .ومن ثم تتردد فيها ضمائر المتكلم والمخاطب، وأفعال الوصول والغياب، وألفاظ الصحبة والكتاب والجواب، فتتشكل صورة علائقية تتجاوز وصف الأشياء إلى تمثيل المسافة بين الذات والآخر.

ثانيًا :خصائص البنية التصويرية عند ابن نباتة

أولى خصائص هذه البنية التكثيف؛ إذ يميل الكاتب إلى جمع أكثر من علاقة في عبارة قصيرة. فالقلم في رسالة المفاخرة "منار الدين والدنيا" و"مفتاح باب اليمن"؛ تنتقل الصورة من مجال الضوء إلى مجال الفتح، وتجتمع دلالتا الهداية والتمكين في أداة الكتابة .ولا يقف التصوير عند استعارة اسمية، بل يمتد في أفعال القلم وآثاره حتى يتكون مشهد حجاجي كامل.

وثانيتها الحركة؛ فالصورة لا تُعرض ساكنة، بل تتدرج من حال إلى حال .الكتاب يرحل ويصل، والشوق يوقظ ويضني، والدهر يقبل ويدبر، والسحاب يجود ثم ينقشع .وتخدم الأفعال المتتابعة هذه الحيوية، كما يتيح السجع تقسيم الحركة إلى لقطات قصيرة متوازنة.

وثالثتها التوليد؛ إذ يبني ابن نباتة صورًا فرعية حول صورة مركزية .فإذا جعل المودة روضةً تولدت منها أغصان العهد، وثمرات اللقاء، ونسائم الذكر، وإذا جعل الفضل ضياءً تولدت منه الكواكب والشموس والمطالع .هذا التوليد يمنح الرسالة وحدةً معجمية ويحولها من مجموعة محسنات إلى نسيج متماسك.

ورابعتها المزج بين الموروث والذاتي .فالمادة القرآنية والشعرية تمنح الصورة سلطةً ثقافية، لكن الكاتب يعيد توجيهها بحسب تجربته ومقامه .وفي هذا المزج لا يكون التناص تكرارًا للمحفوظ، بل وسيلةً لتقوية المعنى وخلق صلة بين حاضر الرسالة وذاكرة المتلقي.

المبحث الثاني: أنماط الصورة وطرائق بنائها

أولا: الصورة التشبيهية

يقوم التشبيه في الرسائل بوظيفة تفسيرية وتقويمية معًا؛ فهو يقرب المعنى ويكشف موقف الكاتب منه .وتشبيهات ابن نباتة لا تعتمد دائمًا الأداة الصريحة، بل تميل إلى التشبيه البليغ

والإضافة التصويرية، فتغدو الرسالة "نسيمًا"، والصديق "بدرًا"، والكلام "درًّا"، والفضل "بحرًا". وقد تبدو هذه المواد مألوفة في أدب العصر، لكن خصوصيتها تنشأ من ترتيبها داخل المقام ومن الجمع بينها وبين أفعال وحالات غير متوقعة.

ويتسع التشبيه أحيانًا ليصبح مشهدًا تمثيليًّا :فغياب الصديق ليل، ووصول كتابه فجر، وقراءة سطوره انكشاف للنور .هنا لا تقابل مفردةٌ مفردةً، بل تتقابل حالتان كاملتان :الوحشة والأنس، والانغلاق والانفتاح .ويؤدي الطباق بين الليل والفجر وظيفةً بنائية، لأنه يرسم التحول النفسي الذي أحدثته الرسالة.

ثانيًا: الصورة الاستعارية والتشخيص

الاستعارة أوسع أدوات ابن نباتة التصويرية؛ إذ تنقل المجرد إلى المحسوس، وتمنح الجماد صفات الإنسان .ففي "المفاخرة بين السيف والقلم" يتكلم الطرفان ويتنازعان الشرف ويستدعي كل منهما شواهده .ويحوّل التشخيص المفاضلة الذهنية إلى مسرح حواري، فيرى القارئ الخصمين ويسمع حججهما .وحين يقول عن القلم إنه "منار الدين والدنيا" و"مفتاح باب اليمن" تتصل الاستعارة بالبناء الحجاجي :نور القلم دليل هدايته، ومفتاحه دليل نفعه.

وتتكرر في الرسائل الإخوانية استعارات الحياة والمرض؛ فالمودة تحيا، والقطيعة تجرح، والكتاب يشفي، والذكرى توقظ القلب .وهذه الاستعارات تكشف أن العلاقة الإنسانية تُفهم بوصفها جسدًا قابلًا للقوة والضعف .كما أنها تتيح للكاتب أن يعبّر عن عتابه دون مواجهة خشنة؛ فاللوم ينتقل من الشخص إلى "داء الهجر" أو "جناية الأيام".

ومن الاستعارات المركزية صورة الكتاب/الرسول .فالرسالة الورقية تُمنح قدرة الحركة والكلام، وتحل مؤقتًا محل صاحبها، فتطوي المسافة وتؤنس الغريب .ويتلاءم هذا التشخيص مع طبيعة الجنس الرسائلي؛ إذ يصبح النص واعيًا بوظيفته، وتتحول الكتابة نفسها إلى موضوع للصورة.

ثالثًا: الصورة الكنائية والرمزية

تتيح الكناية لابن نباتة أن يجمع الأدب الاجتماعي إلى الإيحاء الفني .فبدل التصريح بالكرم يستدعي امتداد اليد أو انفتاح الباب، وبدل التصريح بالسيادة يستحضر علو المكان أو بعد الصيت. وتناسب الكناية مقام مخاطبة الأكابر والأصدقاء؛ لأنها تحفظ المسافة وتترك للمتلقي لذة الاستنباط.

أما الرمز فينشأ من تكرار عناصر بعينها حتى تتجاوز معناها الحسي؛ فالنور يرمز إلى الفضل والمعرفة، والروض إلى المودة والخصب، والليل إلى الغياب والضيق، والسفر إلى تقلّب الحال.

وليس الرمز هنا مغلقًا أو غامضًا، بل يستند إلى عرف ثقافي مشترك، ثم يكتسب خصوصيته من سياق الرسالة.

المبحث الثالث: مصادر الصورة الفنية

أولًا :المصدر الديني والثقافي

يحتل القرآن الكريم مكانًا مركزيًّا في ذاكرة ابن نباتة التصويرية .وتظهر هذه المركزية بوضوح في افتتاح حديث القلم بالقسم القرآني بالقلم وبقوله تعالى: {الَّذِيْ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ}، ثم في بناء فضله على حفظ الكتاب والسنة .فالاقتباس لا يضيف جلالًا لفظيًّا فحسب، بل ينقل الحجاج من الذوق الشخصي إلى مرجعية مشتركة، ويجعل صورة القلم متصلةً بالعلم والوحي والتدوين.

كما يستثمر الكاتب الحديث والسيرة والأمثال والشعر القديم، فيحوّل النصوص السابقة إلى مكونات داخل صوته .وقد يكتفي بإشارة أو تركيب يوقظ ذاكرة القارئ، فتتسع دلالة العبارة دون إطالة .ويكشف هذا الأسلوب عن قارئ مفترض ذي ثقافة موسوعية، قادر على التقاط الإشارة والمشاركة في إنتاج المعنى.

ثانيًا :الطبيعة والمكان

تزوّد الطبيعة الرسائل بأكثر حقولها خصوبة :الشمس والقمر والنجوم، والسحاب والمطر والنسيم، والروض والزهر والثمر .وتتوزع هذه العناصر بين صور المدح والتهنئة والشوق؛ فالممدوح شمس أو بدر، وعطاؤه غيث، ولقاؤه ربيع .إلا أن قيمة الصورة تتحدد بموقعها من التجربة؛ فقد يتحول النسيم من علامة رخاء إلى رسول يحمل التحية، ويتحول المطر من ظاهرة طبيعية إلى جواب ينتظره قلب العطشان.

أما المكان فليس إطارًا محايدًا، بل طرف في التجربة .وتكشف تنقلات ابن نباتة بين مصر والشام عن حساسية تجاه الوطن والغربة؛ فالديار تُشخَّص، والطرق تطول نفسيًّا، والمسافة تُقاس بثقل الشوق لا بالأميال .وتقوم صورة المكان على ثنائية القرب والبعد :قد يكون المخاطب بعيد الجسد قريب الذكر، وقد يكون الكتاب جسرًا يختصر الفضاء.

ثالثًا :الإنسان والحياة اليومية

يستمد ابن نباتة كثيرًا من صوره من أعضاء الجسد وحواسه :العين واليد والقلب واللسان والسمع .وهذه المفردات لا تبقى على حقيقتها؛ فالعين باب للحنين، واليد علامة للندى، والقلب موضع لعهد الصداقة، واللسان أداة للشهادة بالفضل .وبفضلها تتجسد الانفعالات في أعضاء تتحرك وتتألم وتفرح.

وتدخل أدوات الكتابة -القلم والمداد والقرطاس والختم- في صميم الصورة؛ لأنها جزء من خبرة الكاتب اليومية. وتبلغ هذه المادة ذروتها في مفاخرة السيف والقلم، حيث تتحول الأداة إلى ذات ناطقة ذات تاريخ وسلطة .ويكشف هذا الاختيار عن وعي مهني بمكانة الكاتب في المجتمع المملوكي، وعن محاولة رمزية لتثبيت سلطة المعرفة إلى جانب سلطة القوة.

المبحث الرابع :الوسائل الأسلوبية المصاحبة للصورة

أولًا :الإيقاع والسجع

السجع سمة ظاهرة في نثر العصر، غير أن حضوره عند ابن نباتة لا ينفصل عن الدلالة. فالفواصل المتقاربة تقسم المشهد إلى وحدات، وتمنح الصور المتتابعة سرعةً أو تمهلًا .وفي عبارة "منار الدين والدنيا، وقصبة سباق ذوي الدرجة العليا" تتجاور الفواصل، لكن الرابط أعمق من التشابه الصوتي :كلا الطرفين يرفع القلم من الأداة المادية إلى رمز الهداية والسبق.

وقد يحقق السجع وظيفة تذكيرية؛ إذ يجعل العبارة قابلةً للحفظ والتداول، كما يحقق وظيفة انفعالية حين تتسارع الفواصل في التهنئة أو تتثاقل في الشكوى .والمهم أن الإيقاع لا يضاف بعد اكتمال المعنى، بل يسهم في تشكيله؛ فالتوازن الصوتي يوحي بتوازن الصفات، والانكسار المقصود قد يوافق اضطراب الشعور.

ثانيًا :التوازي والتقابل

يبني التوازي صورتين متجاورتين في تركيبين متماثلين، فيتيح المقارنة ويقوي الإيقاع .وتكثر الثنائيات :الحضور والغياب، القرب والبعد، الوصل والهجر، الضوء والظلمة، السيف والقلم. وهذه الأزواج ليست محسنات شكلية، بل محاور تنظم تجربة الرسالة .ففي العتاب يتقابل ماضي الوصل وحاضر الانقطاع، وفي المدح يتقابل عجز الواصف واتساع فضل الممدوح.

ويؤدي الطباق دورًا بصريًّا؛ إذ يرسم الحدين ويجعل الانتقال بينهما محسوسًا .كما أن المقابلة قد تتحول إلى حجة :إذا كان السيف يهدم فالقلم يبني، وإذا كانت القوة تقهر الأبدان فالكتابة تستميل العقول .وبهذا تتحد الصورة والتفكير في بناء واحد.

ثالثًا :التكرار والانزياح التركيبي

يكرر ابن نباتة ألفاظًا أو صيغًا لتثبيت مركز الصورة .فتكرار ضمير المخاطب في رسائل المدح يقرب صورته، وتكرار أفعال الشوق يضاعف الإحساس بالزمن، وتكرار بنية الإضافة يولد سلسلةً من الصفات .وقد يكون التكرار دائريًّا يعيد خاتمة الرسالة إلى بدايتها، فيمنحها إحكامًا بنائيًّا.

أما الانزياح التركيبي فيظهر في التقديم والتأخير، والحذف، وتراكم الصفات، والانتقال بين الخبر والإنشاء .فالتقديم يسلط الضوء على العنصر المصوَّر، والاستفهام يفتح مساحة العتاب، والنداء يحضر الغائب، والدعاء يختم الصورة برجاء يتجاوز الواقع .وهكذا يتحول النحو إلى طاقة دلالية تسهم في زاوية الرؤية.

المبحث الخامس :الوظائف الدلالية للصورة

أولًا :الوظيفة الجمالية والانفعالية

تمنح الصورة المعنى متعة الإدراك؛ إذ تنقل القارئ من تقرير مباشر إلى اكتشاف علاقة .لكنها في الرسائل تؤدي أيضًا وظيفة انفعالية :فصورة الغياب ليلًا لا تخبر عن الحزن فقط، بل تجعل المتلقي يشارك في ثقله؛ وصورة الكتاب نسيمًا لا تصف الوصول فقط، بل تنقل أثره المريح. وبذلك تصبح الصورة وسيطًا بين تجربة الكاتب ووجدان المخاطب.

ويختلف إيقاع الصورة بحسب الغرض :صور التهنئة مشرقة صاعدة، تكثر فيها الأنوار والرياض؛ وصور العتاب مشدودة بين طرفين؛ وصور الغربة مظلمة ممتدة؛ وصور المدح واسعة تعتمد البحر والسحاب والسماء .هذا التناسب بين المجال التصويري والغرض دليل على وعي بالمقام.

ثانيًا :الوظيفة الحجاجية

تظهر الوظيفة الحجاجية أوضح ما تظهر في "المفاخرة بين السيف والقلم". فكل طرف يبني لنفسه صورةً كبرى، ثم يستخرج منها النتائج :القلم منار ومفتاح وحافظ، ولذلك يستحق التقديم؛ والسيف رمز الحسم والحماية، ولذلك يدعي السيادة .ولا تقوم الحجة على القياس المنطقي المجرد، بل على جعل القارئ يرى المنفعة والضرر في مشاهد متقابلة.

وتعمل الصورة حجاجيًّا أيضًا في الطلب والاعتذار؛ فالكاتب قد يصور حاجته عطشًا، وفضل المخاطب غيثًا، فتغدو الاستجابة نتيجةً طبيعية للمشهد .وقد يصور الخطأ سحابةً عابرة والمودة أصلًا ثابتًا، فيخفف أثر الاعتذار ويعيد ترتيب القيم .وتحقق الصورة هنا مقصدًا عمليًّا من غير أن تفقد جمالها.

ثالثًا :الوظيفة الاجتماعية والنفسية

تسهم الصورة في إدارة العلاقة بين المتراسلين؛ فهي تضبط درجات القرب والتوقير، وتتيح التعبير عن الشكوى في صيغة مهذبة .والمبالغة في صور النور والبحر والسحاب ليست دومًا نفاقًا بل جزء من شفرة التخاطب الأدبي في عصر يقوم على الرعاية وشبكات الصداقة .ومع ذلك يستطيع الكاتب أن يترك داخل الصيغة العامة أثر تجربته الخاصة.

نفسيًّا، تكشف صور الغربة والمرض والدهر عن ذات قلقة تواجه عدم الاستقرار .لكن تحويل الألم إلى صورة يمنحه نظامًا وحدودًا؛ فالمشاعر المبعثرة تصبح مشهدًا يمكن قوله ومشاركته . ومن هنا تتجاوز الصورة وظيفة التزيين إلى وظيفة معرفية ونفسية :إنها طريقة لفهم التجربة والسيطرة الرمزية عليها.

نتائج البحث

الصورة الفنية في رسائل ابن نباتة بنيةٌ نصية مولّدة للمعنى، وليست محسنًا منفصلًا عن سياق الرسالة.

تتآزر في بنائها التشبيهات والاستعارات والكنايات والتشخيص والتناص، وتتصل بالإيقاع والتركيب اتصالًا وثيقًا.

يميل الكاتب إلى الصورة الممتدة والمتولدة، حيث تتفرع عناصر جزئية من مجال مركزي كالنور والروض والسفر والكتابة.

تشكل الطبيعة والإنسان والمكان والذاكرة الدينية والثقافية أهم مصادر الصورة، مع حضور لافت لأدوات الكتابة.

يؤدي التشخيص وظيفة بارزة، ولا سيما في صورة الكتاب الرسول وفي مفاخرة السيف والقلم.

يكشف التوازي والطباق عن المحاور الدلالية الكبرى :الحضور/الغياب، والوصل/الهجر، والقوة/المعرفة.

تتنوع وظائف الصورة بين الجمال والتأثير النفسي والحجاج وحفظ العلاقة الاجتماعية.

تقدم رسائل ابن نباتة شاهدًا على حيوية النثر المملوكي، وتدعو إلى تحقيق» سجع المطوّق «ونشره نشرًا علميًّا كاملًا.

الخاتمة

أظهرت الدراسة أن الصورة الفنية تمثل مركزًا بنائيًّا في رسائل ابن نباتة المصري؛ إذ تتقاطع عندها البلاغة والإيقاع والمقام والثقافة .فهو لا يكتفي بأن يصف الشوق أو الفضل أو الغربة، بل يمنحها أجسادًا وحركات وأزمنة، ويجعل الكتابة نفسها كائنًا يقطع المسافات ويصل ما انقطع .كما تبين أن كثافة البديع في نثره لا يصح أن تُقرأ دائمًا بوصفها صنعةً متكلفة؛ فكثير من السجع والتقابل والتضمين يؤدي دورًا في تنظيم المشهد وتقوية الحجة .وتظل رسائله، ولا سيما مادة "سجع المطوّق" والمراسلات المحفوظة في "ألحان السواجع"، مجالًا خصبًا لدراسات لاحقة في التناص، والحجاج، وبنية المخاطَب، وصورة المكان، وتحقيق النصوص.

حواشي البحث

1. ينظر :ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط2،1972 م، ج4، ص 216وما بعدها.
2. ينظر :ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، ج11، ص 95وما بعدها.
3. صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت،2000 م، ج1، ص.313–311
4. محمد عبد الحميد سالم،» موازنة بين سجع المطوق لابن نباتة المصري وألحان السواجع لصلاح الدين الصفدي«، مجلة الدارة، مج14، ع3،1989 م، ص.227–190
5. ينظر في مفهوم النظم :عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط3،1992 م، ص 40وما بعدها.
6. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة،1991 م، ص.35–30
7. جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3،1992 م، ص.18–7
8. مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت، ط3،1983 م، ص.12–3
9. صلاح فضل، علم الأسلوب :مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، القاهرة،1998 م، ص.110–93
10. محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت،1994 م، ص.28–13
11. ابن نباتة المصري، المفاخرة بين السيف والقلم، ضمن رسائله الأدبية المتداولة، وانظر المقطع المفتتح بقوله» :أما بعد، فإن القلم منار الدين والدنيا.«...
12. الصفدي، ألحان السواجع بين البادي والمراجع، وهو من المصادر التي حفظت مراسلات ابن نباتة مع الصفدي؛ وانظر كذلك وصف مادته لدى محمد عبد الحميد سالم، المرجع السابق.
13. ابن نباتة المصري، سجع المطوق، مخطوط دار الكتب المصرية، رقم 9766 أدب، بحسب بيانات فهارس المؤلفات والمصادر التي ترجمت للمؤلف.
14. شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات :مصر، دار المعارف، القاهرة، ط2،1990 م، فصل النثر الفني في العصر المملوكي.
15. أحمد أمين، ظهر الإسلام، مؤسسة هنداوي، القاهرة،2012 م، القسم المتصل بالحياة الأدبية في العصور المتأخرة.
16. عمر موسى باشا، ابن نباتة المصري :أمير شعراء المشرق، دار الفكر، دمشق،1963 م، ص.45–19
17. ينظر في علاقة الصورة بالسياق :محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري :استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3،1992 م، ص.70–55
18. يوسف أبو العدوس، الأسلوبية :الرؤية والتطبيق، دار المسيرة، عمّان، ط1،2007 م، ص.58–35

19. محمد العمري، البلاغة العربية :أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء،1999 م، ص–25 44.

20. عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، الدار العربية للكتاب، تونس، ط3،1982 م، ص.52–33

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.

2. ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف .النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.

3. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي .الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة .تحقيق محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط2،1972 م.

4. ابن نباتة المصري، جمال الدين محمد بن محمد .سجع المطوق .مخطوط دار الكتب المصرية، رقم 9766 أدب.

5. ابن نباتة المصري .سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون .تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1،1964 م.

6. ابن نباتة المصري .المفاخرة بين السيف والقلم .رسالة أدبية.

7. أبو العدوس، يوسف .الأسلوبية :الرؤية والتطبيق .دار المسيرة، عمّان، ط1،2007 م.

8. أمين، أحمد .ظهر الإسلام .مؤسسة هنداوي، القاهرة،2012 م.

9. باشا، عمر موسى .ابن نباتة المصري :أمير شعراء المشرق .دار الفكر، دمشق،1963 م.

10. الجرجاني، عبد القاهر .أسرار البلاغة .تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة،1991 م.

11. الجرجاني، عبد القاهر .دلائل الإعجاز .تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط3، 1992م.

12. سالم، محمد عبد الحميد» .موازنة بين سجع المطوق لابن نباتة المصري وألحان السواجع لصلاح الدين الصفدي .«مجلة الدارة، مج14، ع3،1989 م، ص.008-003-014-0326/10.46968/DOI: .227–190

13. ضيف، شوقي .عصر الدول والإمارات :مصر .دار المعارف، القاهرة، ط2،1990 م.

14. عصفور، جابر .الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب .المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3،1992 م.

15. العمري، محمد .البلاغة العربية :أصولها وامتداداتها .أفريقيا الشرق، الدار البيضاء،1999 م.

16. فضل، صلاح .علم الأسلوب :مبادئه وإجراءاته .دار الشروق، القاهرة،1998 م.

17. المسدي، عبد السلام .الأسلوب والأسلوبية .الدار العربية للكتاب، تونس، ط3،1982 م.

18. مفتاح، محمد .تحليل الخطاب الشعري :استراتيجية التناص .المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 1992م.

19. ناصف، مصطفى .الصورة الأدبية .دار الأندلس، بيروت، ط3،1983 م.

20. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك .الوافي بالوفيات .تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت،2000 م.

21. عبد المطلب، محمد .البلاغة والأسلوبية .مكتبة لبنان ناشرون، بيروت،1994 م.

1. Al-Qur'an Al-Kareem.
2. Ibn Taghri Bardi, Jamal al-Din Yusuf. *Al-Nujum al-Zahirah fi Muluk Misr wal-Qahirah*. Wizarat al-Thaqafah wal-Irshad al-Qawmi, Dar al-Kutub, Misr.
3. Ibn Hajar al-Asqalani, Ahmad bin Ali. *Al-Durar al-Kaminah fi A'yan al-Mi'ah al-Thaminah*. Tahqiq Muhammad Abd al-Mu'id Khan, Majlis Da'irat al-Ma'arif al-Uthmaniyyah, Hyderabad, 2nd edition, 1972 CE.
4. Ibn Nabatah al-Misri, Jamal al-Din Muhammad bin Muhammad. *Saj' al-Mutawwaq*. Manuscript, Dar al-Kutub al-Misriyyah, No. 9766 Adab.
5. Ibn Nabatah al-Misri. *Sarh al-Uyun fi Sharh Risalat Ibn Zaydun*. Tahqiq Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim, Dar al-Fikr al-Arabi, Cairo, 1st edition, 1964 CE.
6. Ibn Nabatah al-Misri. *Al-Mufakharah Bayna al-Sayf wal-Qalam*. Adabi Risalah.
7. Abu al-Adus, Yusuf. *Al-Uslubiyyah: Al-Ru'yah wal-Tatbiq*. Dar al-Masirah, Amman, 1st edition, 2007 CE.
8. Amin, Ahmad. *Zuhr al-Islam*. Mu'assasat Hindawi, Cairo, 2012 CE.
9. Basha, Umar Musa. *Ibn Nabatah al-Misri: Amir Shu'ara al-Mashriq*. Dar al-Fikr, Damascus, 1963 CE.
10. Al-Jurjani, Abd al-Qahir. *Asrar al-Balaghah*. Tahqiq Mahmud Muhammad Shakir, Matba'at al-Madani, Cairo, 1991 CE.
11. Al-Jurjani, Abd al-Qahir. *Dala'il al-I'jaz*. Tahqiq Mahmud Muhammad Shakir, Matba'at al-Madani, Cairo, 3rd edition, 1992 CE.
12. Salim, Muhammad Abd al-Hamid. "Muwazanah Bayna Saj' al-Mutawwaq li Ibn Nabatah al-Misri wa Alhan al-Sawaji' li Salah al-Din al-Safadi." *Majallat al-Darah*, Vol. 14, Issue 3, 1989 CE, pp. 190–227. DOI: 10.46968/0326-014-003-008.
13. Daif, Shawqi. *Asr al-Duwal wal-Imarat: Misr*. Dar al-Ma'arif, Cairo, 2nd edition, 1990 CE.
14. Asfour, Jabir. *Al-Surah al-Fanniyyah fi al-Turath al-Naqdi wal-Balaghi Ind al-Arab*. Al-Markaz al-Thaqafi al-Arabi, Beirut, 3rd edition, 1992 CE.
15. Al-Omari, Muhammad. *Al-Balaghat al-Arabiyyah: Usuluha wa Imtidadatuha*. Ifriqiya al-Sharq, Casablanca, 1999 CE.
16. Fadl, Salah. *Ilm al-Uslub: Mabadi'uhu wa Ijra'atuhu*. Dar al-Shuruq, Cairo, 1998 CE.
17. Al-Masdi, Abd al-Salam. *Al-Uslub wal-Uslubiyyah*. Al-Dar al-Arabiyyah lil-Kitab, Tunis, 3rd edition, 1982 CE.
18. Miftah, Muhammad. *Tahlil al-Khitab al-Shi'ri: Istiratijiyyat al-Tanas*. Al-Markaz al-Thaqafi al-Arabi, Casablanca, 3rd edition, 1992 CE.
19. Nasif, Mustafa. *Al-Surah al-Adabiyyah*. Dar al-Andalus, Beirut, 3rd edition, 1983 CE.
20. Al-Safadi, Salah al-Din Khalil bin Aybak. *Al-Wafi bil-Wafayat*. Tahqiq Ahmad al-Arna'ut and Turki Mustafa, Dar Ihya al-Turath al-Arabi, Beirut, 2000 CE.
21. Abd al-Muttalib, Muhammad. *Al-Balagah wal-Uslubiyyah*. Maktabat Lubnan Nashirun, Beirut, 1994 CE.